الشعر الروماني : مصدراً لتاريخ الجزيرة العربية

ماجدة النويعمي *

قد يبدو أن المؤرخ والشاعر يقفان على طرفي نقيض، الأول بموضوعيته ودقته، والثاني بمبالغاته وعواطفه وانفعالاته، ولكن الأمر ليس على هذا النحو من التناقض الظاهر.

تسعى هذه الدراسة إلى طرح الشعر الروماني مصدرًا من مصادر تاريخ العرب القديم. ويرد هذا الطرح للقضية من منطلق التفاعل الضروري بين الأدب والتاريخ[1]. فلا شك أن الأدب من الفنون المساعدة للتاريخ بعد أن يخضع لضروب من الاختبار والتصفية.

وأحسبه نوعًا من الاستطراد الزائد أن استفيض في الحديث عن أهمية المصادر الأدبية، بما فيها الشعر، لدعم المصادر الأثرية والوثائقية. ولكني أوجز الأمر كله، فيما يتعلق بالشعر، بالقول إن الشعر هو الإحساس بالعصر..هو استيعاب العصر والتفاعل معه، مع القدرة على احتواء أفكاره. وأحسب أنني لست مغاليةً في ذلك لأكثر من حجة وسبب:

أولا: رغم كل ما أحيط بقضية الشعر الجاهلي من ملابسات، إلا أن أية دراسة لتاريخ العرب القديم، في فترة ما قبل الإسلام، لا تخلو من الاعتماد على هذا المصدر[2]، حتى وإن كان يشوبه الحذر. ومن هذا المنطلق، وبالمنطق نفسه، فمن أجل فهم أبعاد العلاقة بين العرب القدامى والرومان أرى أنه لابد من قراءة أشعار كلا الطرفين.

---

*أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية. كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

ثانيا: المعروف أن المؤرخ الإسلامي للعصر العباسي اعتمد على الشواهد الشعرية، وأحالها إلى أدلة تاريخية استعان بها على توثيق الحدث، على نحو ما حدث مع شعر أبي تمام والبحتري، فيما يتعلق بحروب العرب والروم[٣]. ومن هذا المنطلق، وبالمنطق نفسه، أقول إنه لايمكننا إهمال الشعر الروماني عند كتابة تاريخ الجزيرة العربية القديم. وفي الوقت نفسه لا أدعو إلى التسليم به دون وجود ما يشهد على صحته، لذا علينا أن نخضعه للفحص.

ثالثا: الثورة الفكرية التي أحدثها المفكر الفرنسي ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤)، مؤخرًا في المنهج التاريخي، والمعرفة التاريخية، ومن واكبه أمثال المؤرخ الفيلسوف المعاصر بول فين[٤] وغيره، قد أتاحت الفرصة للعلوم الإنسانية لتكون عونًا للتاريخ، أكثر من ذي قبل، والأدب فرع من فروع المعارف الإنسانية.

تعد المصادر الأدبية اليونانية والرومانية القديمة من المصادر العديدة التي يعتمد عليها المؤرخون في العصر الحديث لدراسة تاريخ الجزيرة العربية القديم[٥]. ويقصد عادةً بهذا النوع من المصادر كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة والكتاب الموسوعيين، من اليونان والرومان. ويعفل المؤرخون عادةً دور الشعر الروماني كواحد من هذه المصادر الأدبية.

تبحث هذه الدراسة في الإشارات إلى الجزيرة العربية التي وردت في بعض نصوص الشعر الروماني في محاولة لوضعها على ميزان النقد لمعرفة قدر الموضوعية بها، وبالتالي تحديد أهمية هذه النصوص الشعرية في كتابة تاريخ الجزيرة العربية. وتنتهج الدراسة المنهج المقارن بين النصوص الشعرية المعنية والمصادر التاريخية الأخرى لمعرفة مدى التوافق بينهما. وفي سبيل ذلك تجمع الدراسة المتشابهات من المصادر حول حدث واحد أو قضية واحدة مثل ثراء الجزيرة العربية، والعلاقات التجارية معها، مع مقارنة النصوص الشعرية

بهذه المصادر لإيجاد ما يؤكدها أو ينفيها، بحثًا عن مؤشرات اليقين. ومن حسن الطالع أن لدينا مصادر كلاسيكية متعددة تسهل عملية التحليل.

إذن فقبل أن نوجه سهام النقد إلى الشعر الروماني كمصدر علينا أن نطرحه على مائدة البحث لتقييم مدى قربه من الحقيقة أو بعده عنها. ولما كانت المصادر الأدبية عامةً تحتمل المناقشة، فإن النصوص الشعرية بصفة خاصة بحاجة أكبر إلى الاختبار والتنقية لما يحف بها من مخاطر المبالغة وجنوح الخيال والانفعالات. وليس هناك غضاضة في أن يناقش المؤرخ هذه النصوص بعد جمعها وتوثيقها، وانتزاع الدلالات، فإن كانت تتفق والأحداث التاريخية على نحو ما وردت في المصادر الموثوق بها فلا مانع من احتسابها سندًا إضافيًا، وللمؤرخ أن يرفضها إذا ثبت أنها جنوح خيال. وعلى هذا الأساس، لا أهدف بهذا البحث إلى إقامة الدفاع عن الشعراء الرومان، وإنما هو محاولة لاستكشاف ما يتسق ومنطق الأشياء وحقائق التاريخ في طيات هذا الشعر.

تتشابه القصائد الرومانية في بعض مضامينها مع ما نعرفه من المصادر الكلاسيكية الأخرى فيما يتعلق بالإشارة إلى بلاد العرب. ولم تكن هذه القصائد ذات صبغة تاريخية قصد بها أن تكون معنية بسرد الأحداث، وإنما كانت في معظمها ذات صبغة اجتماعية، تعرض لما حدث في المجتمع من تغيرات. وعندما تحدث الشعراء الرومان عن العرب فقد كان ذلك من منطلق ما أفادته روما من بلاد العرب، أو ما تتوق إلى الإفادة منه، وتأثير ذلك كله على المجتمع الروماني. وهذا في معظمه يدور في فلك المصالح التجارية، من ناحية، والمتغيرات الاجتماعية، من ناحية أخرى.

تنتمي الشواهد الشعرية التي اعتمدت عليها في هذا البحث إلى فترة حكم الإمبراطور أوغسطس Augustus(٢٧ ق.م- ١٤م). ولعل السبب في ذلك أن جميع شعراء العصر الأوغسطي العظام[٦]، بلا استثناء، تحدثوا بصورة أو

بأخرى عن بلاد العرب، وخاصة عن المنطقة المسماة بـ "العربية الميمونة" Arabia felix[٧]، أو "العربية السعيدة" Arabia beata، أو "العربية المباركة" Arabia Eudaemon، وكلها مسميات لمنطقة واحدة، هي جنوب شبه الجزيرة العربية، وهي المنطقة التي تعنيني في هذا البحث، والتي قال عنها الكاتب الموسوعي بلينيوس Plinius الأكبر في موسوعته ("التاريخ الطبيعي"، ٥/١٢/٦٥):

"odiferam illam ac divitem et beatae[8] cognomine inclutam"

"اشتهرت بعطورها وثروتها (وعرفت) باسم السعيدة".

تقوم هذه الدراسة على رصد ما لايقل عن أربع عشرة قصيدة رومانية، تشير إشارات متفاوتة الطول والموضوع إلى بلاد العرب. ولكي أتوخى الدقة لا أدعي أن هذا هو كل ما ورد من إشارات إلى بلاد العرب في الشعر الروماني الأوغسطي، وإنما ما أوردته جاء من موقعي الانتقاء والاختزال.

يمكن تقسيم الموضوعات التي تعرض لها أو ناقشها، الشعراء الرومان فيما يتعلق ببلاد العرب إلى ثلاثة أقسام:

أولا: ثراء بلاد العرب.

ثانيا: البخور والطيوب والتوابل، التي كانت تأتي إلى روما من بلاد العرب.

ثالثا: الإشارة إلى الحملة العسكرية التي قام بها الوالي الروماني الثاني على مصر، إيليوس جالوس Aelius Gallus، على بلاد العرب الميمونة، في٢٦-٢٥ ق.م.[٩]

سأتناول في هذا البحث النقطتين الأولى والثانية، المتعلقتين بثراء بلاد العرب، ثم الطيوب والبخور والتوابل الآتية إلى روما من بلاد العرب، على اعتبار أن هاتين النقطتين وثيقتا الارتباط. أما النقطة الثالثة، المتعلقة بالحملة

العسكرية فهي، وإن كانت بشكل أو بآخر تتصل بالنقطتين السابقتين، إلا أنها تحتاج إلى دراسة منفصلة كي أوفيها حقها.

اقتبس فيما يلي موجزًا يسيرًا من الشعر الروماني، في هذا الشأن، وأحسب أن الشعراء الرومان كانوا على درجة من الإدراك لما كانوا بصدد عرضه شعرًا، على نحو ما سنرى:

أولا: بالنسبة لمسألة ثراء بلاد العرب:

أشارت المصادر القديمة كثيرًا إلى ثراء بلاد العرب، إلى درجة أن الجغرافي استرابون قد أورد في (٢٢/٤/١٦) أن أحد الأسباب القوية التي جعلت الإمبراطور أوغسطس يطلق حملته على بلاد العرب (وهي حملة إيليوس جالوس، سالفة الذكر) هو ما سمعه عن ثراء العرب الفاحش، فقد كانوا يبيعون الطيوب والأحجار الكريمة في مقابل الذهب والفضة، ولا ينفقون شيئًا من ذلك[١٠]. ويضيف استرابون مقولته الشهيرة عن الإمبراطور أوغسطس إنه كان يتطلع إلى أن يتعامل مع أصدقاء أثرياء، أو أن يسيطر على أعداء أثرياء.

ولننظر إلى ما ذكره الكاتب الموسوعي بلينيوس الأكبر، في الكتاب السادس من موسوعته ("التاريخ الطبيعي"، ١٦١/٣٢/٦) من أن السبئيين كانوا أكثر العرب ثراءً، بسبب إنتاج الطيوب، والذهب، ووفرة الأراضي الزراعية، وإنتاج العسل والشمع. ويضيف بلينيوس، في الكتاب الثاني عشر، من موسوعته ("التاريخ الطبيعي"، ٤١/١٢) سببا آخر، وهو اللآليء، كل هذه المقومات مجتمعةً تجعل من بلاد العرب، في هذا القسم الجغرافي، سعيدة.

وفي عبارة تحمل الكثير من الدلالات، يقول بلينيوس ("التاريخ الطبيعي"، ١٦٢/٣٢/٦) عن العرب إنهم من أكثر أجناس العالم ثراءً[١١]، نظرًا لما يتجمع في أيديهم من ثروات آتية إليهم من الرومان والبارثيين، مقابل ما يبيعونه لهم

مما يستخرجونه من البحر، أي اللآلىء، ومن منتجات الغابات، أي الطيوب. ويضيف بلينيوس عبارةً ربما حملت قدرًا من المبالغة، ولكنها مبالغة لا تخلو من دلالة[١٢]، وهي أن العرب لم يشتروا شيئًا في المقابل. وليس من المقبول و لا من المعقول تصديق أن العرب لم يستوردوا شيئا، ولكن من الواضح أن صادرات العرب كانت تفوق وارداتهم[١٣].

وقد جاء الشعر الروماني دليلاً إضافيًا يؤكد تلك النظرة إلى بلاد العرب. فها هو الشاعر الأوغسطي هوراتيوس يستهل القصيدة التاسعة والعشرين، من الكتاب الأول من "الأغاني"، بحديث عن كنوز بلاد العرب، ويطلق عليها تعبير:

beatis...gazis (Odes, 1. 29. 1-2)..

"الثروات..السعيدة"

وصفة السعيدة هنا فيها إشارة إلى ما أطلق على جنوب الجزيرة العربية من أنها بلاد العرب السعيدة، على نحو ما ذكرت آنفًا.

ومرةً ثانيةً، في موضع آخر من العمل نفسه، يذكر هوراتيوس، في القصيدة الثانية عشرة من الكتاب الثاني، أمثلة للثراء شائعة في العالم القديم، ويذكر من بينها:

Plenas...Arabumdomos. (Odes, 2. 12. 24)

"بلاد العرب.. العامرة بالخيرات"

وفي موضع ثالث، من العمل نفسه أيضًا، في القصيدة الرابعة والعشرين من الكتاب الثالث، حين يذكر هوراتيوس ثروات العرب، يقول عنها:

Intactis...thesauris Arabum. (Odes, 3. 24. 1-2)

"كنوز العرب.. التي لم تمس".

ولعل الشاعر يقصد هنا بقوله: intactae "لم تمس"، أن الرومان لم يصلوا إليها بعد، وأن غير الرومان لم يغزوها من قبل. أما إذا ما كانت هذه القصيدة قد نظمت في وقت لاحق لحملة إيليوس جالوس، سالفة الذكر، فتكون الصفة intactae "لم تمس"، هي إشارة من الشاعر إلى الفشل العسكري للحملة.

والأرجح أن نظم هذه القصيدة كان سابقا على الحملة، حيث إنه من الصعب قبول أن الصفة "لم تمس"، التي ذكرها الشاعر، جاءت في وقت فاخر فيه الإمبراطور أوغسطس في "المنجزات" Res Gestae، بأن حملة إيليوس جالوس سارت "بأمره وتحت رعايته": meo iussu et auspicio، بل وفاخر بأنها ألحقت الخسائر بجيوشهم، واستولت على عدة مدن:

"magnaeque hostium gentis utriusque copiae caesae sunt in acie et complura oppida capta". (Res Gestae, 26.5)

ولنا أن نتأمل لغة التكرار[١٤] التي عمد إليها الشاعر هوراتيوس، في هذه المواضع الثلاثة، وكأنى بالشاعر هنا يمهد لما يعرضه بعد ذلك من أمنية متفائلة، أنهى بها إحدى قصائده: (Odes, 1. 35. 38-40)، وهي أن يوجه الرومان أسلحتهم ferrum ضد العرب Arabas. ولعل الشاعر هنا يجمع بين الحس الفردي، والشعور الرسمي في آن واحد.

كان هوراتيوس، كغيره من الشعراء الأوغسطيين[١٥] ينظرإلى الحروب على أن الدافع من ورائها هو الجشع، لذلك نراه في القصيدة التاسعة والعشرين من الكتاب الأول من "الأغاني"، حين خاطب صديقه إكيوس، الذي كان يعد نفسه للخروج إلى الحرب، لم يذكر ما يدل على أن صديقه كان يؤدي واجبه نحو الإمبراطورية، وإنما أشار إلى تطلعه إلى ثروات بلاد العرب

: Icci, beatis nunc Arabum invides

Gazis,...

(Horatius, Odes, I.29.1-2)

"أيا إكيوس، أتنظر الآن بعين الحسد إلى ثروات بلاد العرب السعيدة"

أي أن ثروات بلاد العرب كانت مطمعاً لكل متطلع إلى الثروة ومطمحاً.

ثانيا: البخور والطيوب والتوابل، التي تأتي إلى روما من بلاد العرب:

اشتهرت الجزيرة العربية قديما بنباتاتها مثل المر، واللبان، والقرفة، والقصيعة، واللادن. وأفاضت المصادر الكلاسيكية في الحديث عنها، منذ زمن المؤرخ الإغريقي هيرودوتوس (منتصف القرن الخامس ق.م.). ومن أشهر المصادر في هذا الشأن ما كتبه ثيوفراستوس Theophrastus باستفاضة عن نباتات بلاد العرب ("عن تاريخ النباتات" ٩/ ٤-٥) [١٦]. وقد وجدت هذه المعلومات صداها في الشعر الروماني.

يخبرنا الشاعر الأوغسطي فرجيليوس Vergilius، في قصيدته *"الزراعيات" Georgica*، في سياق حديثه عن أماكن زراعة الأشجار المختلفة، أن:

"شجرة البخور توجد في إقليم سبأ فقط":

Solis est turea virga Sabaeis.

(Vergilius,*Georgica*, 2. 117)

والمعلومة ذاتها، ترد عند الكاتب الموسوعي بلينيوس الأكبر، في موسوعته (*"التاريخ الطبيعي"* 12/29/51-52)، حيث يقول:

"لا يوجد مكان آخر ينتج البخور سوى بلاد العرب":

tura praeter Arabiam nullis

ثم يستدرك قائلا:

"وليست كل بلاد العرب منتجة له":

ac ne Arabiae quidem universae

وإنما إقليم ساريبا Sariba التابع لسبأ، فقط.

ما إن اقترب القرن الأول ق.م. من نهايته إلا وكانت حدود الإمبراطورية الرومانية قد اتسعت شرقًا وغربًا، بصورة فاقت أية إمبراطورية

أخرى سابقة عليها. وصارت روما بحق سيدة البحر المتوسط، مما هيأ لها السيطرة على طرق التجارة المتصلة به. وتمتع المجتمع الروماني بفترة من الازدهار الاقتصادي، وعرفت سلع الرفاهية طريقها بجرأة إلى روما[١٧]. ومن ثم لعبت التجارة الشرقية، بصفة خاصة، دورًا رئيسًا في الحياة الاقتصادية في روما في العصر الإمبراطوري، فإلى جانب استيراد المواد الضرورية كالقمح والأخشاب، قام الرومان باستيراد مواد الترف، كالعطور، والتوابل، والبخور، والأحجار الكريمة، واللآلىء، وما إلى ذلك من بلاد العرب، ومن الشرق الأقصى، وكذلك من إفريقيا[١٨]. وصار المجتمع الروماني مجتمعًا استهلاكيًا، من الدرجة الأولى، لمواد الترف، مما حمل ميزانية الدولة مبالغ باهظةً لتغطية تكاليف استيراد هذه المواد، الأمر الذي تؤيده شهادة الكاتب بلينيوس الأكبر، حيث يقول في ("التاريخ الطبيعي"، ١٢/٤١/٨٤) إن استيراد سلع الترف من الهند والصين وبلاد العرب يكلف الإمبراطورية الرومانية سنويًا مائة مليون سيستركيس على الأقل[١٩]. ولا شك أن هذا المبلغ كان كبيرًا بمعايير ذلك العصر بدليل أن بلينيوس أضاف عبارة أن رجلا مثل كاتو[٢٠] Cato لينتابه الفزع لمثل هذا الإسراف في الأموال، وهو الرجل المعروف بمحاربته للتبذير والإسراف.

ولا ريب أننا حين نكون بصدد الحديث عن التجارة، التي هي أحد أعمدة الاقتصاد في الإمبراطورية الرومانية[٢١]، فلا مناص من الاعتماد على الشعر الأوغسطي كأحد المصادر في هذا المجال. فمن الموضوعات المهمة التي عني الشعراء الأوغسطيون بالنظم فيها، حياة الترف والرفاهية التي عاشها المجتمع الروماني، منذ بداية عصر الإمبراطور أوغسطس، ومن هنا جاء حديث الشعراء الرومان عن استيراد مواد الترف من بلاد العرب، حتى أن روما صارت إحدى المدن الرئيسة في العالم القديم استهلاكًا لتلك المواد. ويأتي البخور واحدا من منتجات بلاد العرب الشهيرة التي ورد ذكرها في الشعر الروماني، نظرًا لاستخداماته العديدة.

يقول الشاعر الروماني تيبولوس، في قصيدة مهداة لأحد أصدقائه، بمناسبة عيد ميلاده، إن من مظاهر الاحتفال بعيد الميلاد العادة التالية:

Urantur pia tura focis, urantur odores
Quos tener e terra divite mittit Arabs.
(Tibullus, 2.2 3-4)

"يحرق البخور المقدس في النار، وتحرق الطيوب التي أرسلتها بلاد العرب الناعمة من أرضها الثرية".

ويؤكد تيبولوس، في موضع آخر، ذات الفكرة، عن المنتجات التي ترسلها بلاد العرب الثرية. ويذكر اسم مدينة باناكيا Panachia الثرية، وهي جزء من العربية الميمونة Arabia Felix ، اشتهرت بالبخور: (3.3 23-24).

ولعل من الخصائص المكملة لحياة الترف في روما، مصاحبة الفتيات، وما يتطلبه ذلك من نفقات على ثيابهن الفاخرة، وعلى أدوات الزينة، والعطور، والحلي، التي تهدى إليهن، وما إلى ذلك. ومن هنا يأتي ذكر بلاد العرب. وفي هذا السياق يتحدث الشاعر تيبولوس، في إحدى قصائده، وهي القصيدة الثامنة من الكتاب الثالث، عن فتاة حازت إعجابه، قائلاً:

sola puellarum digna est cui mollia caris
vellera det sucis bis madefacta Tyros,
possideatque, metit quidquid bene olentibus arvis
cultor odoratae dives Arabs segetis,
([Tib.] 3.8.15-20)

"هي الوحيدة من بين جميع الفتيات، التي تستحق أن تمنحها (مدينة) صور الصوف الناعم المغمور مرتين في السائل عالي الثمن، و(تستحق) أن تمتلك ما يرسله العربي الثري، زارع المحصول العطر، في الحقول طيبة الرائحة".

ولا يخفى على القارىء أن صفة الثراء، التي وردت في النص سالف الذكر، كانت ملازمةً لذكر العرب دومًا في الشعر الروماني، على نحو ما رأينا في القسم الأول من هذه الدراسة. والمحصول العطر الذي يشير إليه الشاعر هنا هو الطيوب، التي اشتهر العرب بإنتاجها، وهذا ما حدثتنا عنه المصادر القديمة. ولعل وصف تيبولوس، في النص سالف الذكر، لحقول بلاد العرب بأنها طيبة الرائحة يعكس العبارة التي ذكرها المؤرخ الإغريقي هيرودوتوس في تاريخه (٣/ ١١٣) من أن رائحة عطرية عبقة تفوح من أرض بلاد العرب[٢٢].

يهاجم الشاعر الروماني بروبرتيوس Propertius، في واحدة من أبدع قصائده، وهي القصيدة الثالثة عشرة، من الكتاب الثالث من ديوان أشعاره، ولع النساء الرومانيات بمظاهر الترف، الذي صاحبه التدهور الأخلاقي. ويطالعنا في مستهل القصيدة بمخاطبة جمهور قرائه، قائلا:

quaeritis, unde avidis nox sit pretiosa puellis,
et Venere exhaustae damna querantur opes.
Certa quidem tantis causa et manifesta ruinis:
luxuriae nimium libera facta via est .
(Propertius, 3.13.1-4)

"تتساءلون لماذا صارت ليالي الفتيات الجشعات مكلفةً، ولماذا تشكو خزائننا، التي جف معينها بسبب (إلهة الحب) فينوس، من النقصان. السبب في مثل هذا الدمار الكبير مؤكد وواضح حقًا: فقد صار طريق الترف حراً تماماً".

ومقصد الشاعر من قوله "صار طريق الترف حرًا تمامًا" أي صار باب استيراد سلع الترف والبذخ مفتوحًا على مصراعيه أمام روما[٢٣]. ثم يعدد الشاعر منتجات الرفاهية، التي ترد إلى روما من الشرق، ولا يفوته أن يذكر من بينها القرفة والعطور من بلاد العرب:

cinnamon et multi pistor odoris Arabs.

(Propertius, 3.13.8)

"القرفة يرسلها العربي، طاحن الطيوب الثرية".

ويوجز الشاعر الواقع الروماني، في عبارة بنهاية القصيدة يتنبأ فيها بمصير روما، التي استوردت هذه الرفاهية من الشرق، فيقول:

frangitur ipsa suis Roma supreba bonis .

(Propertius, 3.13.60)

"روما المتغطرسة، ذاتها، ستدمر بثرواتها".

وإذا مالانتقلنا إلى الشاعر الروماني أوفيديوس Ovidius، نجده في واحدة من قصائده "رسائل البطلات"، يجعل بطلته تكتب لحبيبها رسالة تعبر فيها عن بؤسها في غيابه، وأحد مظاهر هذا البؤس أنها لم تعطر شعرها بمنتجات بلاد العرب:

non Arabum noster dona capillus habet.

(Ovidius, *Heroides*, XV. 70)

"يفتقر شعري إلى هدايا العرب".

والمقصود بهدايا العرب في البيت السالف هو الزيوت العطرية المستوردة من بلاد العرب، والتي كانت المرأة الرومانية مولعةً باستخدامها[٢٤]. وجدير بالذكر أن أي حديث عن زينة المرأة الرومانية لا يعد كاملاً بدون الإشارة إلى عناية المرأة بشعرها كي تجذب الرجل إليها. ومن هنا صارت العطور العربية جزءًا لا يتجزأ من ثقافة المرأة الرومانية فيما يتعلق بزينتها من أجل الرجل.

يوضح الشعر الروماني، على نحو ما رأينا، نوعًا من الصلات التي كانت قائمةً بين العرب والرومان. وأستطيع أن أزعم أن الشعر الروماني يعد مصدرًا له طرافته في ذات الوقت. ورغم أن الشعر الروماني لا يقدم معلومات تاريخية، أو جغرافية وفيرة، فالإيجاز هو الطابع الغالب على لغة هؤلاء الشعراء، وفي

تعبيراتهم عن بلاد العرب، ورغم أنهم لا يتحدثون عن السياسة، أو الإدارة، أو النظم، وما إلى ذلك، في بلاد العرب، فليس لنا أن نلوم هؤلاء الشعراء على اختيارهم لبعض الأمور دون غيرها لتكون مجالاً لنظمهم، فالفن انتقاء.

وقد جاء هذا الشعر ذا طابع اجتماعي، يحمل في طياته معلومات اقتصاديةً باعتبار أن لها من التأثير على المجتمع الروماني ما لا يمكن تجاهله بحال، ولا عجب في ذلك، وقد اعتمد المؤرخون على كتابات بلينيوس الأكبر ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي. أليس من المناسب إذن ان يعتمد المؤرخون كذلك على الشعر الروماني الذي يحمل الخصائص ذاتها؟

وخلاصة القول إنه إذا تجاوزنا حدود الإبداع، وقضايا الشكل الفني، والصياغة الجمالية، بما تقتضيه من مظاهر فنية، كالمجاز والتصوير والمبالغة، فإن ما أعزوه للشعر الروماني من قيمة تاريخية يجد له سندًا في المصادر الكلاسيكية الأخرى، على نحو ما رأينا، بالإضافة إلى قيمة هذا الشعر التي تنبع من الفترة التي عاصرها.

وفي النهاية أقول إنني لا أدعو إلى اتخاذ الشعر قاعدة للتأريخ، وإنما أدعو إلى الاستناد إليه في دعم الموقف والتدليل عليه، فقد يحتاج المؤرخ إلى رؤى أخرى تؤكد ما لديه من شواهد، وهذا ما يقدمه لنا الشعر.

الهوامش :-

(١) من العبارات الطريفة عن العلاقة المتبادلة بين الأدب والتاريخ، تلك التي قالها هابينيك:

T. Habinek, *The Politics of Latin Literature: Writing, Identity, and Empire in Ancient Rome* (Princeton 1998) 5: " But for all that literature is part of history, it seems important to recognize that history can be part of the pleasure of literature".

Cf .B. Southgate, *History: What and Why* (Routlege, 1996) 14 f.; P. Hardie, "The Historian in Ovid. The Roman History of Metamorphoses 14-15", in: D. S. Levene & D. P. Nelis (eds.), *Clio and the Poets: Augustan Poetry and the Traditions of Ancient Historiography*, 191-209.

انظر كذلك:

عبد الله التطاوي، *الشاعر مؤرخا* (دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦).

(٢) انظر، على سبيل المثال، لطفي عبد الوهاب يحيى، *العرب في العصور القديمة*، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩)، ص ص ٢٣٨ – ٢٨٥.

(٣) انظر، على سبيل المثال، عزالدين إسماعيل، *في الشعر العباسي*، (المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤) ص ص ١٥ وما بعدها، ١١٩ وما بعدها.

(٤) انظر: بول فين، *أزمة المعرفة التاريخية: فوكو وثورة في المنهج*، ترجمة وتقديم إبراهيم فتحي (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣).

(٥) جدير بالذكر أن الاهتمام بشبه الجزيرة العربية قد ظهر بصورة واضحة اعتبارا من القرن الخامس ق.م.، وتزايد فيما بعد، وكان هناك أكثر من سبب وراء هذا الاهتمام المتزايد، ولعل أهم هذه الأسباب جميعا فتوحات الإسكندر الأكبر، واعتزامه غزو هذه المنطقة، بل والاستعداد الفعلي لذلك. ولكن حال موته المفاجيء في ٣٢٣ ق.م دون تحقيق هذه الخطوة.

انظر: لطفي عبد الوهاب يحيي، "الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية"، دراسات *في تاريخ الجزيرة العربية*، الكتاب الأول، جـ ١: *مصادر تاريخ الجزيرة العربية*، (الرياض، ١٩٧٩)، ص ص ٥٥ وما بعدها. عن اهتمام الإسكندر الأكبر والبطالمة من بعده ببلاد العرب، انظر:

محمد عبد الغني، *شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة*، (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩) ص ص ١٧ وما بعدها.

(٦) المقصود بالشعراء الأوغسطيين العظام: فرجيليوس (٧٠- ١٩ ق.م)، هوراتيوس (٦٥- ٨ ق.م)، تيبولوس (من حوالي ٥٥- حوالي ١٩ ق.م)، بروبرتيوس (من حوالي ٥٤- ١٦ ق.م))، أوفيديوس (٤٣-١٧ ق.م).

(٧) أول تقسيم دقيق ورد للجزيرة العربية في الكتابات الكلاسيكية ذلك الذي قدمه الجغرافي إيراتوستنيس Eratosthenes (٢٧٥- ١٩٤ ق.م). وقد قسمها إلى "العربية الصحراوية" في الشمال، و"العربية الميمونة" وتمتد من الوسط إلى أقصى الجنوب. وقد وصلتنا كتاباته عن طريق الجغرافي استرابون (Strabo,*Geographica*, XVI.4.2, 3, 4). أما بلينيوس فقد حدثنا عن أربعة مناطق أطلق عليها اسم "العربية": ("التاريخ الطبيعي"، ٦٥/١٢/٥؛ ٧٢/١٥/٥؛ ٨٥/٢/٥). لتحليل وصف بلينيوس المعقد للعربية، انظر: هنري ماك آدم، "استرابون، بلينيوس الكبير، بطلميوس الإسكندري: ثلاثة تصورات عن العربية القديمة وشعوبها، ترجمة مصطفى العبادي، *رسائل جغرافية*، ١٤٦(الكويت، ١٩٩٢) ص ص ٨ وما بعدها.

(٨) في موضع آخر ("التاريخ الطبيعي"، ٣٨/٣١/٦) أطلق بلينيوس، على هذه المنطقة، مسمى "العربية المباركة" Arabia Eudaemon. وفي موضع ثالث من نفس العمل (٥١/٣٠/١٢) تحدث بلينيوس عن "الأسباب التي منحتها لقب المباركة والسعيدة": (causasque quae cognomen illi felicis ac beatae dedere).

(٩) انظر مناقشة تاريخ بداية هذه الحملة ونهايتها في:
S.Jameson, "Chronology of the Campaigns of Aelius Gallus and C. Petronius", *JRS*, vol. 58 (1968) 76 ff.

(١٠) يعتبر باورسوك، وهو واحد من أشهر الدارسين الذين كتبوا في تاريخ بلاد العرب القديم، أنه من المؤكد أن الإمبراطور أوغسطس كانت لديه، في تلك المرحلة، اهتمامات توسعية للسيطرة على التجارة الثرية للتوابل والطيوب، من أجل ذلك أرسل حملة إيليوس جالوس على بلاد العرب الجنوبية، انظر:
G. W. Bowersock, "A Report on Arabia Provincia", *JRS*, vol. 61 (1970) 227.

(١١) انظر كذلك المثال، الذي مر بنا آنفا، فقد ذكر بلينيوس في ("التاريخ الطبيعي"، ٦٥/١٢/٥) أن هذه المنطقة اشتهرت بثروتها: inclutam ...divitem. وفي ("التاريخ الطبيعي"، ٥١/٣٠/١٢) كذلك يتحدث بلينيوس عن"ثروات العربية": Arabiae divitias. انظر كذلك: بلينيوس ("التاريخ الطبيعي"، ٨٢/٤١/١٢).

(١٢) لم تكن هذه هي المبالغة الوحيدة في المصادر القديمة عن ثراء العرب، هناك ما أورده استرابون في (١٩/٤/١٦)، على لسان كل من أجاثارخيديس Agatharchides، وأرتميدوروسArtemidoros ، عن حياة الترف والبذخ عند السبئيين والجرهائيين.

(١٣) يعلق ماك آدم (١٩٩٢) ص ١١، على هذه العبارة بقوله: "ليس هناك في "التاريخ الطبيعي" مثال آخر أكثر دلالة أن بلينيوس كان مشغولا باختلال ميزان المدفوعات، كما يشغل به بعض علماء الاقتصاد اليوم".

انظر كذلك مناقشة عبارة بلينيوس في: محمد عبد الغني (١٩٩٩) ص ص ١٨٩ وما بعدها، وحاشية ٤٦ ص ٢٠٠.

(١٤) حين أراد هوراتيوس أن يؤكد إصراره على حريته في (*"الرسائل"* ١/٧/٣٥-٣٦) وأنه لا يرضى عنها بديلا، تخير بديلا قويا، يمكن أن يضعف أمامه أي شخص من معاصريه، ألا وهو ثروات بلاد العرب، يقول الشاعر: "لن أستبدل راحتي وحريتي بكل ثروات بلاد العرب". يعلق ستار على هذا الموقف بقوله إنه يوجد إحساس خفي في "رسائل" هوراتيوس بأن حرية الشاعر الفكرية، بل والحرية الحقيقية للإنسان صارت في خطر داهم بسبب إغراءات هدايا الذهب:

C. G. Starr, *Civilization and the Caesars* (Ithaca & New York, 1954) 191.

(15)Cf. Tibullus, I. 10. 7; II.3. 35 f.; Propertius, III. 5. 3 f.

(١٦) انظر الدراسة التالية:

سهير زكي بسيوني، "ثيوفراستوس ونباتات شبه الجزيرة العربية"، *مجلة كلية الآداب*، جامعة الإسكندرية، مجلد ٣٨ (١٩٩٠).

(١٧) هذه الحالة التي عبر عنها توماس هابينيك خير تعبير بقوله إن روما صارت هي العالم، لأن العالم صار عليه آنذاك أن يأتي إلى روما، انظر:

Thomas Habinek, "The Invention of Sexuality in the World-City of Rome", in: T. Habinek & A. Schiesaro (eds.), *The Roman Cultural Revolution* (Cambridge, 1997) 26.

(١٨) عن علامات الرفاهية الآتية إلى روما من الشرق، انظر:

J. Griffin, "Augustan Poetry and the Life of Luxury", *JRS*, vol. 66(1976) 92 ff.

(١٩) لم يكن إرسال هذه المبالغ الكبيرة إلى الشرق دليلا على عدم التوازن في تجارة سلع الرفاهية فحسب، بل هناك رأي بأن روما مارست بهذه الطريقة نوعا من المضاربة من أجل تحقيق مصالح بعيدة المدى، تأكيدا لسيادتها ومكانتها عبر البحار، انظر في ذلك:

E.W. Gray, Rev.of J. Miller, *The Spice Trade of the Roman Empire*, (Oxford, 1969), in: *JRS*, vol. 60 (1970) 223 f.

(٢٠) المقصود هنا ماركوس بوركيوس كاتو، الخطيب الروماني الشهير (ولد عام ٢٣٤ ق.م.). انظر:

أحمد عتمان، *الأدب اللاتيني ودوره الحضاري حتى نهاية العصر الذهبي* (دار المعارف، ١٩٩٥) ص ص ١٢١ وما بعدها.

(٢١) عن التجارة كعامل رئيس في الحياة الاقتصادية في الفترة الأولى من الإمبراطورية الرومانية، انظر:

م. رستوفتزف، *تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي*، ترجمة ومراجعة: زكي علي ومحمد سليم سالم (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧) ص ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢٢) للمعنى نفسه، انظر كذلك: ديودوروس الصقلي (٤٦/٣).

(٢٣) يلفت كلارك أنظارنا إلى مسألة عدم تحبيذ الشعراء الرومان للتجارة ويعلق على هذا الموقف بقوله إنه في حين رحب الرجل العادي والسلطات في روما بازدهار التجارة الذي تبع انتشار السلام، نجد ان طبقة المفكرين كانت تميل إلى فكرة الاكتفاء الذاتي وإدانة دعوة التجار على اعتبار أن الدافع من ورائها هو الجشع. ويضيف كلارك قائلا إننا بذلك نلاحظ لدى الكثيرين من الكتاب الأوغسطيين مقابلة حادة بين المجتمع الذي يعيشون فيه والذي قبلوه وأيدوه، من ناحية، وبين نظرتهم الأخلاقية، من ناحية أخرى، انظر:

M. L. Clarke, *The Roman Mind* (The Norton Library, 1968) 101.

(24) Cf. Propertius, 1.2.3.